ترجمة النصوص المقدسة
بين صيرورة الإدراك وشروط الفهم والتواصل

بريهمات عيسى
جامعة ثليجي عمار
الأغواط – الجزائر –
brihmat.aissa @yahoo.fr

مقدمة:

تتبوأ ترجمة النصوص المقدسة موقع الصدارة، ويزداد الاهتمام بها من يوم لأخر، وهي تثار اليوم أكثر من أي وقت مضى من قبل ملايين المؤمنين بكتبهم المقدسة (التوراة، الإنجيل، القرآن). حيث تعقد لها الملتقيات والندوات في المجتمعات المنتجة للعلم والمعرفة، لتنمو الحضارة وتتقدم الشعوب وتتجدد معرفة الظاهرة المقدسة. وفي هذا العدد من المترجم مقاربتنا لا تطمح إلى حل إشكال ترجمة النصوص المقدسة العزيزة المنال، لكنها تسعى إلى إبداء بعض الملاحظات وإثارة بعض الأسئلة والتحفظات، ابتغاء تعبيد وتذليل العقبات العصية المتعلقة بترجمة النصوص المقدسة.

هذه النصوص –التوراة، الإنجيل، القرآن– ليست سواء لا في قدسيتها، ولا في التوحيد والإعجاز، ولا في النظم والأداء، فهي تتباين بشكل واضح في منطلقاتها وأطوارها وأهدافها سيميائيا تواصليا إيقاعيا، كما تختلف أيضا في أبعاد أخرى ومن ضمنها دلالتها التداولية، التي جعلت القرآن على

مثال مُرْسِلِه تماما وكمالا، وقام على وجود الله دليلا. إن الفروق والاختلافات المشار إليها آنفا وباقتضاب تعد -ترجميا- فرضيات وأرضيات تأويلية وأساليب منهجية تخضع لها الترجمة، التي عادة ما تكون مشروطة بصيرورة التلقي والفهم والنسق الثقافي ومدركات اللغتين لغة النص الأصل (المقدسة)- ولغة النص الثاني لغة الترجمة التي توجه النص نحو نوع مخالف من القراء في بيئة لغوية وثقافية مغايرة.

على الرغم من الإنجاز الذي حققته الترجمة بات اليوم مطلوبا من أية نظرية في الترجمة، وفي فهم النصوص المقدسة، بل في الفهم الإنساني، أن لا تتردد في معالجة ظاهرة اللغة، لأن اللغات تختلف وتتمايز وتتفاضل فيما بينها في قدراتها وفعاليتها الحضارية والثقافية. اللغات تختلف عمرا وتجربة، في النسق ورؤية العالم وهي التي تصنع رؤية الإنسان وتفكيره وصياغته لنفسه ولوجوده.

وطبقا لما سبق تتنزل ترجمة النص المقدس في صميم الصدام أو الحوار بين عالم الفهم وعالم النص المقدس فتتحمل في آن واحد مسؤولية التراث والحداثة بوصفها وسيطا بين نص قديم ومتلق حديث ومعاصر. الترجمة بهذا المعنى تصبح فضاء محولا للأفق وموسعا للفهم ومحفزا للسؤال. وليس هذا فحسب بل تقحم النص المقدس القديم في جدل مع نص معاصر، وهي من وجوه كثيرة تعمل على تعميق بحث العلاقة بين اللغة والكينونة والفهم والتاريخ والوجود والحقيقة...

وإذا كانت بنيات اللغات تتطابق مع بنيات الفكر وتقطيع الوجود، فإن تحليل علاقة اللغة بالإدراك الحسي والتمثيل الذهني هو الذي يؤدي إلى فهم التفكير المتطور من خلال إدراك المعاني والدلالات اللغوية في الأرضيات المعرفية

المختلفة والمتغيرة. وفي هذا المضمار «اللغة ليست أداة أو وسيلة للتخاطب والتفاهم والتواصل فحسب. وإنما اللغة وسيلتنا للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني من خلال مواقف كلية».[1] وعادة ما تنطلق الترجمات تحت رقابة وهيمنة النص المصدر، من فرضية مفادها أن اللغات المقدسة الأولى نسق من النظام اللغوي، لكنه النسق المهيمن، الذي يحاول أن يفرض هيمنته وسيطرته على النظم اللغوية التي توظفها الترجمات المعاصرة بمختلف اللغات.

والملاحظ في هذا المضمار أن ترجمة النصوص المقدسة وإن كانت ترتبط بالإدراك والفهم، فهي لا تتخذ عالم الأعيان والحقيقة أرضية انطلاقها، بل تتأسس على نص مقدس سابق، أي على عالم من الألفاظ تنطلق منه. فهي ليست كالنص الأصلي في علاقته بخثل الواقع، ولا تملك القدرة على الانطلاق بكل حرية، بل تخضع لشروط وضغوط النص الأصلي النص المقدس، فهي صيرورة ومسعى تأويلي مشروط بموجهات ملفوظة ومكتوبة عديدة: لسانية، ثقافية، عقائدية، ترتيلية، بالإضافة إلى ما يحكمها من افتراضات مسبقة ضمنية وظاهرة. يرى رومان جاكبسون أن «كل تمثيل للدلالة هو بالضرورة ترجمة» أما جورج مونان فيؤكد «أن الترجمة هي مرور معنى نص ما من لغة ما إلى لغة أخرى».[2] لكن هذا المرور لا يتم دون ضحايا وتضحيات وقد يكون مشحونا بالنوايا والرواسب والفروق الثقافية قصدا أو عفوا...

وليست مسؤولية التحويل التي يتعرض لها النص عند الترجمة ملقاة على عاتق المترجم وحده، بل إن اللغة تتحمل القسط الأوفر منها، فاللغة التي يترجم إليها النص لها طقوسها وشروطها الخاصة، فهي تقحم في النص مسائل وقضايا ورغبات لا تكون واردة في شكله الأصلي، وإذا بالمترجم وهو يحاول

الاستيلاء والاستحواذ على لغة النص المقدس مرغم من جهة أخرى على نقل ما لا يكون راغبا في نقله. وأحيانا ترفض اللغة أي تعاون معه وقد تتسلى بعجزه وشلل حركته.(3) وقد تفضي به إلى فائض دلالة أو ضمور دلالة أو تحريف وتعتيم دلالة.

ونُعززُ ما نذهب إليه من حكم بقول الجاحظ :«ومتى وجدت الترجمان قد تكلم بلسانين، علمت أنه قد أدخل الضيم عليهما؛ لأن كل واحدة من اللغتين (المنقول إليها والمنقول منها) تجذب الأخرى وتأخذ منها، وتعترض عليها، وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه، كتمكنه إذا انفرد بالواحدة، وإنما له قوة واحدة، فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليهما، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات».(4)

كل نص مقدس يتمظهر بمعمار إشكالي له أبوابه وأنفاقه وأروقته، لكن الترجمة قد تلج إليه من النافذة، فتعطي نصا مترجما شاذا، قد يصبح أصلا ثان كما وقع لـــ "ألف ليلة وليلة" -إن جاز التمثيل- حيث أصبحت ترجمة "جالان" الفرنسية تدعي أنها أصل أقوى وأعلى بل أخصب من الأصل العربي. وهذا ما يجعلنا نخشى أن الترجمة قد تجب وتجرف الأصول، فتضيعها بل تفسدها وتعوضها، فتتربع على عرش الأصل محتلة المنبع وهي مجرد مصب.

ويُرَجَحُ لها، بعد حين، أن تُعتمدَ نصا مقدسا يفضي على لغته القدسية، كما وقع للغتين الإغريقية واللاتينية -من قبل- التي ترجمت إليهما الكتب المقدسة ويقع اليوم أيضا للغات العامية مثل الفرنسية والإسبانية والإنجليزية... التي أصبحت معتمدة ومقدسة وبها تمارس الطقوس في الكنائس.

مع العلم أنه في الكتب المقدسة (التوراة والإنجيل) ليست الأفكار أو المعاني هي المقدسة والموحى بها بل الكلمات أيضا.[5] فما السبيل إلى مصطلح (مقدس) يقع الإجماع النسبي عليه ؟.

وفي هذا السياق، نلفي بعض الترجمات تُهِيل التراب على الدلالات المقدسة، وذلك بإسقاط دلالات بديلة معاصرة على الاستخدام التراثي، سعيا لتعميق دلالات تؤسس الخطاب الإلهي كخطاب مفارق لسياقه وواقعه بل ومفارقا للغته القديمة. إن الترجمة على الترجمة اشتقاق وشقاق بل تيه وابتعاد يؤدي إلى سبل شتى ومتفرقة تمسخ النص الأصلي وتقصي أعرافه وصيغه التعبدية.

مما مضى نستنتج أن الترجمة ليست فعلا تواصليا محايدا. نظريا قد تكون أداة تفاهم بين ثقافتين وعقيدتين، لكن في الواقع كثيرا ما تكون وسيلة استثمار وإشهار تشغِلُها مؤسسات وجماعات ضغط تحقيقا لأهداف إستراتيجية سياسية وعقائدية... إن الترجمة اقتراب واستنساخ محدود يسكنه الضيم قصدا أو عفوا، لا تماثل النص المقدس المنزل، ولا تعوضه ولا تحيّه، ولا تنفخ فيه الحياة. وهي إن نشرته مسخته وبددته نسبيا وربما جعلته هباء منثورا تسفيه الريح كما هو واقع ***التوراة والإنجيل*** في اعتمادهما الترجمات المتعاقبة والمتواترة التي ضيعت الأصول.

من كل التراث الترجمي الضخم ألا نتبين أن المعنى الترجمي المزعوم مطابقا ***للقرآن الكريم*** -مثلا- مجرد سراب يحسبه الظمآن ماء؟. حسب الترجمة أن تقترب من النص الأصل، وسعيها يبقى دوما نسبيا، لكن رغم ذلك، إن

كانت النية خالصة، فهي تنشر لغة القرآن أو لغة النص الرباني من حيث تدري ولا تدري، والقرآن ينشر اللغات المختلفة مؤثرا فيها وفي أساليبها بوصفه سفيرا ربانيا إلى أصقاع الدنيا.

ودفعا لكل الالتباس «ترجمة *القرآن*» لا تسمى على الإطلاق قرآنا بل تفسيرا داخليا أو خارجيا أو قل ترجمة أحد معاني القرآن. ولو أن المترجمين كان بعضهم لبعض ظهيرا والترجمات تعضد الترجمات ما صنعت قرآنا على الإطلاق. كل نص قابل للتحسين وقد تتفوق عليه الترجمة وتأتي بأحسن منه وتفوقه، إلا القرآن الكريم تعالى علوا كبيرا، فإذا ما أردنا تحسينه شوهناه لأنه معجز من كل الوجوه وهو على مثال غير مسبوق على الإطلاق واليقين.

إن المترجم عندما ينهض بترجمة نص مقدس لا يسأل عما يقول ولكن عليه أن يسأل عما يريد أن يقول، وهي فكرة كانت واضحة جدا عند مفسري وشراح الكتب المقدسة القدامى. يبدو النص المقدس مجبولا على تعدي الأزمنة والآفاق أكثر من النصوص البشرية، فكل ترجمة وكل قراءة جديدة لنص مقدس تصنع له عالما ممكنا كان مرسوما في أفقه تزكيه العناية الإلهية عبر الكتب المقدسة الأصلية التي لم تطلها يد التحريف.

كل ترجمة جديدة هي، في واقع الأمر، ولادة لعالم ممكن جديد في تغير ديناميكي متواصل. وكل هذه العوالم تنشأ من العلاقة التي تربط عالم النص بعالم المترجم الواقعي.(6) لو أمعنا النظر في النص الأصلي (التوراة الإنجيل، القرآن) نجده يحمل الواقع الحسي السيميولوجي الذي هو سابق ونشأ في خثله ومن التفاعل معه. أما النص المترجم فلا يتأسس على خثل الواقع بل على النص المسموع أو المكتوب أي سميائيا من علامة لغوية إلى أخرى لغوية تتحكم فيها،

ثم يأتي دور المتلقي فيتمثل الملفوظ أو المكتوب ذهنيا ويميسم لغته سيميائيا على نهج سيميوطيقا "بيرس" انطلاقا من الماثول مرورا بالموضوع وانتهاء بالمؤول...

ومن تحليل هذه العلاقة علاقة الإدراك الحسي بالشيء المحسوس يتبن أن هناك مسافة أو هوة سحيقة في عملية الإدراك، وإنما تملأ هذه الهوة اللغة أو فعل الكلام. ومن هذه العلاقة يرى "إيكو" أن «النص بإمكانه إثارة ترجمات لا متناهية ولكن دون السماح بترجمات لا أساس لها. ليس بالإمكان الحكم على ترجمة بأنها أفضل تأويل لنص ما، ولكن من الممكن اعتبار جملة من التأويلات الترجمية على أنها خاطئة».[7] وهذا يتأتى من ربط العلاقات ربطا صحيحا.

هذه الاعتبارات تحد من حرية المترجم المطلقة، مقيدة قصد المترجم بقصد النص، بينما قصد الأصل -النص المقدس- يبقى هدفا خياليا يصعب التعرف عليه نهائيا وبصفة مطلقة. فالترجمة هي حوار جدلي بين المترجم والنص وتأرجح متواصل (كحركة النواس) بين قصد المترجم وقصد النص. ومما سلف وبين يدي إشكاليات الترجمة المقدسة قد يجوز لنا أن نحكم على أن ترجمة النص المقدس لن تكون في الواقع إلا تأليفا لنص آخر.[8]

يفترض في النصوص المقدسة الأصيلة أن لها طاقة وذخيرة وأعراف أقوى وأرسخ، وأن النص المقدس هو الذي يملك قوى الجذب فيجذب المترجم نحوه ويدخله عالمه ويكيف سلوكه وإدراكه وفهمه. بمعنى أن صاحب النص هو الذي صنع هذا العالم وجهزه «حسب إستراتيجية تشبه إستراتيجية المتاهة بل الكون العظيم، وعلى المترجم أن يدخل الكون المتعالي المقدس متبعا قواعد اللعبة ومسلحا بقدراته المعرفية لإيجاد طريقة فيه.

وهناك قاعدة لابد منها لكي يجتاز المتاهة بسلام، أن يكيف نسقه حسب نسق المتاهة، أي أن «يعتمد النفس المقدس الذي يتطلبه النص».(9) لكن القدرات البشرية النسبية تقعد دون إدراك النص المقدس والهيمنة على كل أبعاده لأن منطلقه وهدفه رباني يتأسس على المطلق واللانهائي لكن بفهم بشري نسبي محدود من أجل ولصالح البشرية وعلى لسان بشري.

ما النص المقدس؟

هناك حقيقة لابد من الإشارة إليها هو أن ترجمة الكتب المقدسة من أولى الظواهر الترجمية، لها مقدمات وممهدات تتعلق بإدراك هذه الظاهرة اللغوية بوصفها مقدسة وفهمها والتأكد منها بعد القراءة والتحليل المسلح بمختلف العلوم اللسانية الإنسانية الثقافية... التي تفضي بعد ذلك إلى الترجمة. إن عملية ترجمة أو قراءة أي كتاب سواء كان كتابا أدبيا رفيعا أو مقدسا هي عملية لقاء مع مؤلف يثبته التوثيق فبمن نلتقي في قراءتنا العهد القديم؟ وبمن نلتقي في قراءتنا العهد الجديد؟ وبمن نلتقي في قراءتنا القرآن الكريم؟ في الواقع نلتقي بنبي تلقى الوحي من السماء.

تبدو العلاقة وطيدة بين حياة المؤلف والنص الذي أملاه على أتباعه وصحابته وحوارييه من الأنبياء، في موقف أرضي هو سياقه وموقف سابق هو فضاء الوحي، وذلك بكرة وأصيلا لمن كان يسمع أو يكتب له من الأتباع والمؤمنين خصوصا إذا كان رسولا واضح الميسم والسمة. الكتاب المقدس ملازم للنبوة وملازم لعقيدة كل قوم فإذا ثبت بطلان أصله أو بطلانه وتحريفه

لزم من ذلك فساد العقيدة* وربما سقوط القدسية وانتفاء سمة ترجمة المقدس التي نشتغل عليها.[10]

أما حقيقة عدم وجود معلومات كافية عن مؤلف العهد القديم فإنها تثير الدهشة والحيرة، فبدون هذه المعلومات لا يفهم مضمون النص التوراتي في أصوله وتعاق الترجمة ويتمخض عنها نص مشوه مضاعف المسخ. إنه لأمر غريب حقا أننا نجهل هوية من دوّن هذا الكتاب، الذي ظل يلعب دورا أساسيا في حياة اليهود والمسيحيين. وليس هذا فحسب بل نجهل حتى هوية من قاموا بتدوين أسفار العهد القديم (التكوين، الخروج، اللاويين، العدد، التثنية).[11]

التوراة في واقع الأمر كتاب موحى ومنـــزل لكن تعرض للكتم والتحريف يقول عز من قائل: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** ﴾ وقال في محكمه ﴿ **مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ** ﴾.[12]

ونستنتج مما سبق أن التوراة بعد التحريف أصبحت عبارة عن نصوص متعاقبة مكتوبة من قبل أشخاص مختلفين، ويفترض أن هذه النصوص ما هي إلا أجوبة لحاجة المجتمع. وحتى وإن كانت نصوصا أُوحِيَ بها إلى النبي "موسى" فهذا يعني أنها تقدم أجوبة مثالية لأزمنة ليست بالضرورة قابلة للنقل من منطقة إلى أخرى، ولا من مرحلة زمنية إلى أخرى، وفي هذا السياق معروف أن اليهود لم يطبقوا تعاليم الكتاب بنفس الطريقة وعبر كل الأزمنة والأمكنة.[13]

إننا لا نعرف أعاش مؤلف قصص العهد القديم في القرن الثامن أم القرن الخامس قبل الميلاد؟ وهذا السؤال الوجيه تترتب عنه أسئلة كثيرة تصادر الترجمة وتعوقها مثلا: معاني أي فترة زمنية نعتمدها في الترجمة؟ أنعتمد معاني المؤلف بوصفه شاهدا على الأحداث أم مستمعا وبالتالي راوية للروايات الشفهية التي تناقلها الأحفاد عن الآباء؟ هل نعتمد السرد الراوي لما قرأ المؤلف من مصادر مكتوبة والتي لا ترقى إلى مستوى الوحي الإلهي بل هي ربما تحريف* تأليف من وحي الخيال أراد مؤلفه أن يجعل منه نصا معتمدا بل ومقدسا وهو ليس كذلك ودون اللغة والعمل القدسيين.[14]

وليس ثمة شيء من الأسفار المقدسة لدى اليهود والنصارى يمكن أن يقارن أدنى مقارنة بالقرآن أو السُنة التي تلقَتها الأمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك لانعدام السند عندهم وعدم المعرفة التامة بكتابة الأسفار وتاريخ التدوين.[15] من بين الكتب السماوية المقدسة، تميز وانفرد القرآن بتوثيق علمي محكم لا يجارى وهو أحد مفاتيح إعجازه وسموه وأوكل حفظه إلى الأمة بينما الكتب السماوية تولى حفظها الأحبار وهم سبب ضياعها وتحريفها بعد جيل أو جيلين من النبي الذي أنزلت عليه.[16]

ولكي يتخذ المترجم صبغة منهجية من النص المقدس يتجلى فيها البعدان الإدراكي والتداولي، بوصفهما مستويين متميزين ومتراتبين نظاما، وفيهما تتموضع الأفعال والأحداث التي يصفها أو يعالجها النص بوصفه مقدسا، هل يمكن للمترجم أو الناس عامة أن يتعاملوا مع الدلالة في الخطاب المقدس من ثلاثة منظورات وبكل اطمئنان وثقة: الدلالة التاريخية، والدلالة النصية، والدلالة الآنية أم أن هذا لا يتحقق إلا في النص القرآني الثابت بين دفتي

الكتاب ذي التاريخ الموثق والمعزز بالسنة والنـــزول المنجم والمحكوم بالشروط الخارجية وبالأحداث التاريخية.

يفهم من الدلالة التاريخية هنا تلك الدلالة التي ثبتها المكتوب في النص المقدس القديم أو في النص القرآني، وصيرها إشارة يدل بها لا على نفسه، ولكن على سياقه الخارجي. وإذا كان ذلك كذلك فإن النص يمثل، والحال هذه، كينونة إشارية تتصل أسبابها بالوحي عامة، أو بأسباب النزول وزمن الحدوث الأمر الذي لا يتكرس في الترجمة التي تعجز أن تشير إلى المرجع السياقي كما الأصل.(17)

رأت كوكبة من الدارسين القدماء والجدد أن موسى كتب أسفار التوراة الخمسة، لكن جاء من بعده محررون، في وقت متأخر، أضافوا بعض الكلمات والمقاطع والفقرات من عندهم. وفي القرن الحادي عشر «ذكر "إسحاق بن يشوش" (الطبيب الخاص لحاكم الأندلس المسلم) أن قائمة "ملوك أدوم" في سفر التكوين تشير أيضا إلى "ملوك عشوا" بعد وفاة موسى بسنوات طويلة».(18) والحصيلة من هذا تعرب عن نص ما يزال يشكو من الاختلاف والتناقض والتفاوت واللبس الذي يلغي القدسية عنه بل حتى عن أسسه.

وفي القرن السادس عشر قامت كوكبة من الباحثين بتحديد النص الأصلي الذي كتبه موسى وكان على رأسهم: "أندرياس فان ماس" (الكاثوليكي) و"بنديكت برياره" و"جاك بونفرد" وأكدوا هم كذلك «أن النص التوراتي المزعوم أضيف إليه بعد ذلك بواسطة آخرين. وذكر "فان ماس" أن محررا متأخرا قد أدخل فقرات وغير أسماء وأماكن كي يوافق النص عصره

وحتى يفهمه القراء».[19] لكن الكنيسة سارعت فوضعت كتاب "فان ماس" ضمن قائمة الكتب الممنوعة التداول في الكنائس الكاثوليكية.

وعلى هذا النحو، وفي دراسة نقدية أكد الفيلسوف اليهودي "باروخ سبينوزا" أن الأجزاء التي تمثل إشكالية في "العهد القديم" ليست حالات فردية فحسب قابلة لتبرير أو تعليل منفرد بل «هي موجودة في كل أسفار التوراة فهناك العبارات المكتوبة عن موسى بضمير الغائب وهناك تصريحات لا يبدو أن موسى هو قائلها »[20] مثال «*وأما الرجل "موسى" فكان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض*».[21] يستحيل أن يصدر هذا الكلام من قبل النبي موسى. هذا يدل على اليد العابثة بالنص المقدس.

ونحن إذ نثير هذه الأسئلة فلكشف النزعة القدسية للنص لأن الترجمة مشروطة بها. وهل نحن بالفعل أمام نص مقدس؟ وهل قدسيته مساوية لقدسية القرآن أم لا تسمو سموها ولا ترقى رقيها؟ بل نعت القرآن بها تجني عليه لما فيها من إبهام وغموض وعدم تحديد. أما الأناجيل الأربعة (إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا) المعترف بها والتي تم تداولها في الكنائس بلغات مختلفة العبرية والسريانية واليونانية، إنه بالإضافة إلى الشك في مؤلفيها تبدو كذلك هوية مترجميها مجهولة. هذه الأناجيل المعترف بها والتي همشت أناجيل قديمة سبقتها لا يتسع المقام لذكرها لم يَمْلِها المسيح، ولم تنــزل عليه بوحي، ولكنها كتبت من بعده، وهي لا تشتمل إلا على أخباره.

قدسية النص هل تستدعي وحدة الأثر واللغة؟

العقبة الأولى والأساسية التي تواجه الباحث في ترجمة الكتب المقدسة، هي غياب الوحدة في النص الأصلي المعتمد، وكذلك تمزيق الوحدة مرارا وتكرارا، وعلى فترات متعاقبة في النصوص المصبية. مؤلفو الترجمات اشتغلوا متفرقين زمرا وأفرادا فأنجزوا نصوصا متعددة لا تماسك فيها ولا ترابط بينها تشكو اختلالا وتقدم نفسها بوصفها نصوصا مقدسة لكنها تكاد تكون فاقدة لبؤرة الوحدة ذلك لأن اللغات المختلفة عندما تغادر أنظمتها لتدخل في نظام النص، فإنها لا تبقى أداة حاملة أو ناقلة فحسب، ولكنها تصبح ذاتا مبدعة لما تقول ومن هنا تُقَوِلْ النص الأصل ما لم يقل بل تُؤَوله وتبعده عن لغة المنبع (العبرية والأرمينية).

يعلل "فرنسوا بوير" هذه الفروق ويبررها فـــ «يرى أن الهدف في هذا السياق هو الخروج من واحدية اللغة المتمثلة في الترجمات الفرنسية للكتاب المقدس ومن تجانس الأنواع والكتابات»(22) سعيا إلى التعددية في الترجمة والقراءة، فكانت النتيجة تفاوتا كبيرا في الشكل وفي المحتوى، لا يصنعه الأصل وإنما تصنعه الترجمات المتعددة، وتذهب به في مهب كل ريح صانعة معاني ودلالات خاطئة لا يقول بها إنسان عاقل وتتنافى مطلقا مع الأبعاد القدسية شكلا ومضمونا.

وحسبي أن أدلل هنا على هذه الفروق الصارخة في الترجمة من خلال الأمثلة التي يقدمها "بول هنري لوبرفي" في ترجمة الصيغة اليونانية (touto estin to soma mou) بالصيغ الفرنسية المتفاوتة شكلا ووظيفة «Ceci est mon

Marie André «corps» «هذا هو جسدي» بينما نجد في ترجمات La Montagne الصيغة التالية: «Ce pain est mon corps» التي تعني: «هذا الخبز هو جسدي» أما Emmanuel Carrère فيترجمها: Prenez. Ce pain, c'est moi وعند Pascal Monnier (mc14, 22): «Ceci est moi».

يصعب أن نجد وحدة الانطلاق في كل هذه الترجمات وبإمكاننا أن نعدد الأمثلة وهي كثيرة وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى تشويه وتحويل الترجمات للنص الأصلي المقدس. وفي هذا السياق أليس غريبا ومجحفا أن نَسِمَها بميسم الترجمة المقدسة؟ بعد أن عملت على محو المعجم الطقسي التقليدي بكل تراكيبه، فالتعميد صار غطسا «baptême» «plongée» مثلا، والرئة صارت نفسا pneuma / souffle والخطيئة خطأ «faute» / «péché» وهلم جرا..[23]

ليس في الوسع مقابلة ترجمة "بايار" مع نموذج موحد ونهائي للترجمة، لأننا في واقع الأمر لا نملك الأصل ولا نوعا من المقياس أو المعيار المعتمد لـــ (الكتاب المقدس): مخطوط من هذا القبيل ببساطة وبصراحة لا يوجد، لا توجد مخطوطات كاملة يؤرخ لها منذ تحرير النصوص المقدسة الأولى كما يذكر ويشير إلى ذلك "فرنسوا بوير".[24] وذلك، لأن الترجمة مهما كانت فهي تفرض بل تتطلب اختيارات:لغوية، بلاغية، أسلوبية، نحوية، أجناسية، سردية، جمالية... بوسعنا أن نلخص تاريخ ترجمات (الكتاب المقدس) بوصفها بحثا عن توازن يتمثل في احترام النص الأصل واحترام لغة النص المصب (توازن أصبح منذ بداية العهد النقدي يتأرجح ما بين الاثنين (الأصل واللغة).[25] في واقع الأمر كل ترجمة تحمل بين طياتها قسمة معتبرة تنعت بالذاتية، ترتبط بالثقافة

وبالخيارات الدينية للمترجمين. هذه الترجمات ذاتية، وذلك لأن هناك ذات تتلقى وتقرأ وتفهم وتدرك على نحو ما استنادا إلى ثقافة وقصد وتوجه ورغبه... بالإضافة إلى اللغة التي تأوي كلمة الرب وقد لا تتسع لها شكلا ووظيفة ومحتوى.

ما اللغة المقدسة؟

إن كل تعامل مع النصوص المقدسة يحتاج إلى تصور نظري يستمد منه قدرته على الفعل وطاقته على الإنجاز، فالتعامل مع النصوص المقدسة يحتاج إلى نظرية في مفهوم القدسية وقدسية الترجمة التي لا نشك أنها تختلف عن النظرية الأدبية التي ربما تعتمد عليها الترجمة.

وإبراز قدسية النص ومواطن القدسية فيه وفي لغته لا بد أن ينهض على نظرية في القدسية تصور خصوصية هذا النص ومنتهاه في علاقته بالخالق وعلاقته بالعالم وعلاقته بالمؤمنين به والساهرين على ترجمته. إنه بنية مَقْدُودَة من مادة مفعمة بالأبعاد والأجواء القدسية وتقبع في أرجائه ووحداته ذاكرة تاريخية محملة بعبق المقدس في كل أبعاده.

إن تحديد وتأسيس المستندات القدسية النظرية بوضوح أمر لا نحسبه ممكنا في ظل مصطلح يكتنفه الغموض الذي يهدد فعل الترجمة من أساسه ويخلق الفجوة بين اللغات –مقدسة وغير مقدسة– دون جدوى إذ يدفع الترجمة إلى وجهة واحدة يحرمها من الحرية وعبقرية الإبداع ويخضعها لنماذج قديمة مجبرا نص اللغات العامية Vernaculaire [26] على الاندراج ضمن المعتقد

النظري المستحيل الإنجاز الذي يدين به والتفريط بذلك فيما به يكون النص الترجمي متفردا.

بغير ما جهد كبير، كلنا يدرك أن الكلام في وَحَوْلَ اللغة المقدسة يفضي بنا دائما إلى فضاء لغات الكتب المقدسة وهي (العبرية، الأرمينية) ومصطلح مقدس هنا يتأسس على الكتابات المقدسة وهي التي أوحاها الروح القدس فهي لغات علوية ربانية وليست كاللغات الأرضية العادية التي تتعاطاها بعض شعوب الأرض.(27) في إطار المقدس نحن أمام (لغة الروح القدس) بل (تراكيب الروح القدس) و(كلمات الروح القدس) التي تتوالى وفق نظام ونحو خاصين وقد نجد نماذج منها في معاجم خاصة تدعي هي كذلك أنها مقدسة بل على العموم هي من وحي قدسي.(28)

ففي الكتب المقدسة، ليست الأفكار وحدها هي المقدسة وإنما الكلمات أيضا والجمل في طريقة تركيبها وتواليها، ولهذا عادة ما يطلب من الترجمات أن تكون مكافئة شكلا ووظيفة للتي هي مقدسه.(29) إذا كانت ترجمة الكتاب المقدس ليست فعلا حياديا بل فعلا عرفيا يحترم صوت المسيح، إلا أن هناك من يرى من أمثال "موشي قرينبارج" وبإسناد أن لغة الكتاب المقدس كانت لهجة *"كنعانية"* تختلف قليلا عن اللغات التي يتكلمها جيران إسرائيل "فينيقيون" وغير... ومعظم الآداب المقدسة في واقع الأمر مؤلفة بهذه اللغة العامية واليومية التداول. وفي هذا السياق البحوث الأركيولوجية تثبت أيضا أن لغة الكتاب المقدس كانت عامية مبتذلة وليست نتاج إبداع أدبي ويمكن القول كذلك أنها ليست لغة منـــزلة من السماء.(30)

وهذه المقدمة العصية والغامضة دفعت مترجم (La version de Lausanne) إلى القول «يستحيل القيام بترجمة كاملة مضبوطة. ومن أجل إنجاز ترجمة من هذا القبيل يجب أن يتوفر من جهة نفس النحو، نفس الأشكال والصيغ، نفس التراكيب. ومن جهة أخرى ينبغي أن يتوفر معجم مكافئ» (31) وهي شروط قلما تجتمع لمترجم.

ما الجدوى من الوقوف طويلا عند الكتاب المقدس اللاتيني؟ وقد أضحت اللغة اللاتينية لغة ميتة ومن المجدي في هذا السياق اعتماد الترجمات إلى اللغات العامية Vernaculaire. وإذا كان هناك من وازع ديني يدفع إلى مساءلة النص الأصلي فمن المجدي مساءلة النص "العبري المقدس" لا النص اللاتيني والإغريقي اللذين كرس في الترجمات.

انطلاقا من المسار الترجمي الطويل الباع وبناء على اختلاف وتفاوت الترجمات العديدة للكتاب المقدس فإن التوراة في شكلها néo vulgate هي المعتمدة ومن جهة أخرى فهي نموذج الترجمات المعتمدة في الطقس. ما الذي يفسر هذا الوضع وضع الامتياز؟ الحقيقة كافية في حد ذاتها لتبرير مصلحتنا، إن الغرب بالتقريب لم يعرف إلا الكتاب المقدس اللاتيني طوال ألف عام. هذه النقطة ذات أهمية لأنها تحافظ على خصوصيات الكنيسة الكاثوليكية: لقد تم تداول الكتاب في حضن الكنيسة، ومنها اكتسب قدسيته أما الطريقة التي تلقت بها الكنيسة الكتابة المقدسة فهي تبعث على التساؤل كما هي عنصر أساسي لهذا العرف القديم.(32)

إن الذي يوازن بين الترجمات المختلفة يدرك لا محالة أن انتشار المسيحية في الغرب جرى أولا عبر وسط "صوتي هليني"، النـــزعة تابع نفس

المسالك التي سلكتها اليهودية ومثل وجها دينيا شرقيا مارسه السوريون (مصطلح مقصود به مجتمعات التجار الشرقية). وما ينبغي تأكيده هنا أن الدين مس في أول الأمر شريحة الفقراء والعبيد. وفي هذا السياق فتوحات الإمبراطورية دفعت إلى الأسواق عبيدا أصولهم شرقية يتكلمون الإغريقية. ومن هذا أيضا إشكالية الترجمات لم تطرح إلا في أواخر العصر.

يؤرخ لظاهرة الترجمة اللاتينية في القرن الثاني ميلادي. في المنطلق كانت "*السبعونية*" والنصوص التي تكون فيما بعد العهد الجديد (Nouveau Testament). النصوص التي شكلت المصحف La vulgate كانت تسمى Vêtus Latina أو Vétéres وفقا لاعتبار أن هناك ترجمة أم عدة ترجمات.

أما الترجمة الأقدم فقد تمت دون شك في إفريقيا. نعرف هذا من خلال حكم القديس Cyprien، أسقف قرطاج، في منتصف القرن الثالث ميلادي وعبر الكتابات المقدسة القديمة الإفريقية والتي عرضت نصا قريبا من الحالة الأولية البدائية. وحسب "جان قريبومان" هذا النص الأولي انتقل إلى الغرب خلال القرن الثالث. وهنا يكون ذاك النص قد ارتطم بالاستعمال الشفوي، الذي قاد إلى تحرير La Vêtus Latina «الأوروبية» وبلا شك في إيطاليا.

هذا النص هو في واقع الأمر تتويج لعمل تصحيحي معتبر شكلا ومضمونا، تم في إيطاليا خلال القرن الرابع ميلادي. أخذ المترجمون بعين الاعتبار كل منجزات الطبعة "السبعونية" Septante التي تمت في "الإسكندرية" "وأنطاكية" وحَوَّل الجملة إلى جملة لاتينية. بالإضافة إلى هذا التنوع، تعرض النصوص المختلفة لــ Vêtus Latina الخصائص المشتركة. الخاصية الرئيسة أن

هذه النصوص تمت ترجمتها حرفيا خلافا لسنة الاستعمال اللاتيني الترجمي الذي جسده "شيشرون" وهو (الترجمة حسب المعنى لا الترجمة كلمة بكلمة).

هل تتساوى قدسية النصوص؟

النص المقدس كيف ندركه؟

هل فهمه يعادل فهم النصوص البشرية؟

هذا التعدد في الأسئلة من شأنه أن يدفعنا إلى كشف النقاط الغامضة في إشكالية الترجمة المقدسة. كان البعض يظن أن القرآن، مثل الكتب المقدسة الأخرى، سيكون له وزنا ثقيلا بل أثقل إن وضع في ترجمة على لسان فرنسي أو انجليزي بحكم أن هذه اللغات أقوى من اللغة العربية لكن وقع العكس لقد نهض القرآن بتعابير وأساليب هذه اللغات واللغات العامية Vernaculaire واستمدت منه الكثير من فنون القول سردا وخطابا كما ظهرت تلك اللغات سقيمة أمام مجده متصدعة مترددة أمام بيانه.

هذه النسخ التي حَمَلتْ ترجمات القرآن وهي التي استمدت من النص الأصلي –القرآن الكريم- بعضا من سلطته مما جعل الكثير من أبناء هذه اللغات يسعى إلى الحصول على نص القرآن الكريم والاقتراب منه لتعلم لغته وفهمه على الوجه المطلوب لكن عقبة اللغة حالت دون ذلك لأن العرب لم يجتهدوا في تسهيل تعليم لغتهم للأجانب، وفي هذا السياق تبقى ترجمات معاني القرآن أداة تقريب وتحسيس ونشر للقرآن في كل بقاع العالم وهي تلعب دورا استراتيجيا في الصراع القائم بين الأديان والكتب المقدسة التي يبذل الجميع جهودا وسياسات مختلف في توسيع انتشارها أفقيا وعموديا عبر كل القارات وبواسطة الترجمة المختلفة والمتعددة لمختلف لغات العالم.

لولا أن القرآن معجز في لغته العربية وليس باللغات الأخرى لاستولت الترجمة على سلطته كما وقع لقصص ألف ليله وليله -إن جاز التمثيل- التي فقدت سلطتها العربية واكتسبت سلطة أقوى بالفرنسية بل تحولت إلى أصل فرنسي تولدت عنه ترجمات وإبداعات بلغات أمم شتى وكفت مجتمعات على اعتبارها ترجمات أجنبية للنص العربي «ولعل السمة الوحيدة التي تلفت أنظار الدارسين وتنبههم على أنهم يقرءون ترجمات من لغات أخرى هي تلك المشقة التي يجدونها في نطق أسماء شخصيات وأعلام في عمل ألف ليلة وليلة العربية».[33]

هل ترجمة الكتب المقدسة مقدسة؟

هل كل كتاب ينعت مقدسا هو في حقيقة الأمر كتاب منـــزل وحيا من الله. وهل كل كتاب حمل اسم نبي من الأنبياء هو حقيقة من كلام ذلك النبي وتعاليمه؟ ما هي الشروط والقواعد والأسس التي يحتكم إليها العلماء في إدراك القدسية وتوثيق النص وقبوله بوصفه مقدسا؟ أم أن القدسية مفرغة من محتواها وتطلق على عواهنها، ودون اكتراث على الأصل والترجمة؟

يفترض في النص المقدس (التوراة والإنجيل) خلوه من الأخطاء والتناقضات والنواقص لكونه من عند الله يعبر عن أحاديته وصمديته إذ يعضد بعضه بعضا في تكامل وتناسق يحقق جلال معانيه وتناسق معارفه ومبادئه وأخباره دون شطط وغلو لأن ما يكون مصدره مقدس رباني لا يختلف ولا يفترق ولا يتناقض ولا يخالف الحقائق الثابتة ولا مسلمات العلم والمعرفة.[34]

قال سبحانه وتعالى ﴿ **أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا** ﴾.[35]

الترجمات المتواصلة للنصوص العبرية المسيحية من لغة إلى أخرى وعبر ما ينيف عن أربعين قرنا ثمينة بتحويل نص "موسى" أو "عيسى" إلى مشتقات غريبة لا توافق و لا انسجام بينها. إن النص عندما يحول النص عبر الترجمة يخلف التحويل ضياع بعض المعاني والدلالات أو يحدث فائض أو ضمور في الدلالة بل تحريف وتعتيم. إن الترجمة مهما اجتهدت تعجز لا محالة أن تقول وتبدي كل ممكنات النص المقدس الحقيقي الأول، لأنها في واقع الأمر تمارس التعتيم والتشويه لما هو مقدس وذلك لأن الترجمة مفارقة للنص المقدس فليست جوهرا ميتافيزيقيا يحيل على الله الخالق عز وجل الذي يخاطب مخلوقاته حسب ما أودع فيهم من قدرات، وإنما هي عملية بشرية يشوبها النقص والضعف لها حدودها، ومجهوداتها ونجاحاتها وتاريخها (الذي هو تاريخ نمو قابلية الترجمة Traduisibilité).

إن خصوصيات شتى تتضح بخصوص مقاربة النص الترجمي غير أنه لا يحكم على الترجمة بقانون المطلق الكل أو لا شيء، بل بقانون النسبية البشري لأنها لا تستطيع أن تقترح أكثر من نص مكافئ وبدون هوية.[36] يقول ريكور «الترجمة مهما كانت وفية ومتقنة لن تكون إلا مكافئة ولكن بدون هوية أثناء التكافؤ تفقد الهوية» فهي محفز لآلية التباعد بين الأصل والترجمة. بفضل الكتابة الكلمة تصل إلينا تلامسنا ب «معناها» وبـــ "الشيء" الذي تعبر عنه ولكن تفقد لا محالة "صوت النبوة" الذي بثها.[37]

إن الترجمة هي بالفعل «بحث -لا أكثر- عن المرادف الأكثر تقريبية لإرسالية تنقل من لغة إلى أخرى ومن ثقافة إلى أخرى تختلف عنها هوية وتصورا ثم إنها بهذا الاعتبار أحد أجمل انتصارات التواصل الصعب بين البشر».(38)

الترجمة المقدسة تطرح صعوبات جمة وتتأسس على مضايقات وذلك عندما تسعى إلى إعادة توجيه النص الأصلي نحو نوع مخالف من المتلقين في بيئة لغوية وثقافية مغايرة وذلك مع مطلب عسير التحقيق وهو ضرورة تخفي المترجم كذات متكلمة فارقة فاصله وقد يستحيل اكتشافه بوصفه صوتا فارقا في النص المترجم ويكون هذا الانطباع الناتج عن التجانس الظاهر بين نص الترجمة والنص المصدر المقدس هو ما يجعلنا نجزم خطأ «أننا نقرأ المصدر أو الأصل لكن القارئ العليم يشعر أن الترجمة دون الأصل فهي تختلس ما هو جوهري في شكل ومحتوى الأثر الأصلي تلك هي صعوبة نقل الشكل المقدس».(39)

ثم إن الترجمة تكون شاهدا على وجود مسافة لغوية بين خطابين: الخطاب القرآني أو المقدس وخطاب الترجمة. وإنه ليستحيل استحالة مطلقة تقليص هذه المسافة بحيث يمكن فيها أن يتحقق التطابق بين الخطابين (الأصلي والمصبي) بل يصبح الخطاب الرباني لغة مغايرة ومحدودة الأفق في الخطاب البشري، كما يصبح الخطاب البشري لغة متغيرة إزاء الأول. ومن هنا ينتفي عن الترجمة تمامها وتبدو محتاجة إلى المراجعة والتحيين في كل عصر لتلاشي وتقلص دلالاتها.

الترجمة المقدسة مطالبة بأن تكون مقنعة وحاسمة وتزامنية. ولا سبيل إلى هذا إلا بصبغة تزامنية تتمثل في محاولة العودة إلى زمن النص الأصل لكي تقرأَ مفرداتِه وتراكيبه بمعانيها السائدة آنذاك وليس بالمعنى السائد اليوم. إنها عكس الترجمة الإسقاطية التي تقع في المغالطة التاريخية، وتسقط على النص المقدس معاني زمن آخر وعصر آخر. وينبغي التنبيه إلى أن معاني مفردات اللغة تتطور وتتغير من عصر إلى آخر.

وفي هذا المضمار الخطاب الرباني مجبول على فتح الوعي البشري على المطلق ويظهر بالفعل متجاوزا الترجمة تاريخيا ومتقدما عليها في الزمن الآتي. وإن مثل هذه الصيرورة لتؤكد على أمرين على ديمومة القرآن بوصفه نصا رائدا قائدا، ونسقا متأبيا ممتنعا، ومنتجا ثقافيا. كما تؤكد على انتساب هذا الخطاب في تمامه وكماله إلى الله عز و جل.

الكثير من اللغات والثقافات أفادت من ترجمة الكتب المقدسة، باعتبار الترجمة نسقا يقوم بتحويل نسق سابق نقلا أو بثا أو تحويلا، ويتحقق هذا المسعى عبر مجازات ومعابر تستحدثها لغتنا بوصفها مصبا لمنبع يفترض أن يكون أصيلا لا ترجمة على ترجمات متلاحقة ومتعددة عبر مدى زمن طويل كفيل بتجريف بل بتضييع ومحو ومسخ كل الأصول (معجمية تركيبية، دلالية سردية، إيقاعية...) الأمر الذي يلزم المترجم سواء كان فردا أو مؤسسة دينية التزام الحذر والفطنة في النقل وعدم التدخل وتقرير الأصل بدقة وببساطة دون إضافة أو حشو أو حذف أو تشويه.

مسألة الترجمة مسألة عامة، لا تتعلق فقط بعلاقات لغة بلغة، ولكن علاقات نص بنص، وذلك لأن كل نص يفترض أنه أصل تحوله نصوصا أخرى

ترجميه: ما هي العلاقات الدلالية بين نصين أحدهما مشتق من الثاني، سواء أكان الأمر يتعلق بإعادة كتابة إبداعية وشرح أو ترجمة؟ [40] مشكلة العلاقات الدلالية بين نصين أحدهما معروف أنه إعادة كتابة لـــــ آخر سابق يُهِمْ بالتلازم بمحتويهما وتعبيريهما : والمشكل يطرح خلافا إذا ما تعلق الأمر بترجمات متوالية لنفس النص أو علاقة مابين نص ومصادره، شجرة النصوص المشتقة منه، شروحه، وأخيرا ترجماته. من أجل القبض على هذه الإشكالية المركبة، يجب على البحث الترجمي تطوير نظرية عامة تتعلق بإعادة الكتابة تشمل بالإضافة إلى علم وراثة النصوص علم تأويلها.

هل في الإمكان أن يترجم نـــص مقدس؟ وفـــي هذه الحال هـــل نعتبر الترجمة بـــدورها نصا وارثا للقدسية؟ هذه الأسئلة لها أجوبة مختلفة فيما أنجز من ترجمات مختلفة على علاقها عبر الأزمنة والجغرافيا والثقافات. ترجمت ***التوراة والعهد الجديد والفيداس والقرآن الكريم*** وكتابات أخرى مقدسة عبر الكون واستتبع ذلك اختلاف الناس حول قدسيتها.

في واقع الأمر الترجمة لا ترث القدسية عن الأصل لأنها ببساطة بشرية فحسب وحمالة للمقاصد والوجوه والنـــزوات. ولكن إذا كرسها الاستعمال طويلا كما في الكتب المقدسة التي ترجمت إلى الإغريقية واللاتينية والفرنسية والانجليزية وسائر اللغات الأوروبية تعتمد، لكن البعض يرى أن هذه القدسية ممسوخة ومخالفة للقدسية ذات الجوهر الإلهي، مثل ***التوراة*** والكتب المقدسة، "***الميدراش***" و"***التلمود***" التي هي لا زمنية.

بالنسبة للقرآن الكريم فالأمر مستبعد لا قدسية إلا لنص القرآن الكريم أما باقي الترجمات فما هي إلا ترجمات لبعض معاني القرآن الكريم ولا تعتمد لا في ترتيل ولا في عبادة ولا في صلوات. لا وجود لمفهوم "النص المقدس" في الإسلام إلا على صعيد المتصور العقلي ولا على صعيد الممارسة العلمية. ولكن ثمة بدائل لهذا المصطلح مثل "القرآن الكريم". غير أن هذه البدائل لا تعني في الفضاء الإسلامي ما يعنيه هذا المصطلح في فضائه الغربي.

إن استعمال هذا المصطلح في الحيز الإسلامي ليعد استعارة مسيحية تسللت، كأمور كثيرة، إلى الفضاء الدلالي في الإسلام المعاصر. وإن معناه ليتحدد بإطلاقه على "العهد القديم و "العهد الجديد". كما يطلق على النتاج الثقافي للمسيحية، كالموسيقى وفنون الرسم، وبعض الأدبيات، والتفاسير، وبعض الشخصيات الكهنوتية والكنسية التي تشتغل بالنص الديني وتكتسب قداستها من اشتغالها به وصار كل ما يناقضه يقع حكما في دائرة المحرمات وينعت بالرجعية والظلامية إلى آخره.(41)

هل قدسية مصدرية القرآن المفارقة للمعطى الوضعي تحيل على الله الخالق عز وجل الذي يخاطب مخلوقاته حسب ما أودع فيهم من قدرات؟ وهل يمكن سبر كنه السردية الإعجازية بمسبر الإبداعية الإنسانية القائمة على النـــزوع البشري الذاتي؟ هل نستطيع توسل أدوات واحدة لتحليل خطابين أو نصين مختلفين خطاب الوحي وخطاب الترجمة البشري، علما أن الأول يتأسس على حقائق مطلقة بينما الثاني قائم على الإيهام والاحتمال والخيالي والتخييل؟ وفي سياق الإجابة عن مثل هذه الأسئلة المطروحة ينبري الباحث الطبيب موريس بكاي

قائلا: «استطعت أن أحقق قائمة، أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث».[42]

أما بالنسبة للعهد القديم فيرى ويؤكد أن سفر التكوين «مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر العلم الحديث».[43] من هذا فإن قدسية القرآن مفارقة بالفعل لكل قديسات الكتب السابقة التي حُرفت مع العلم أن منطلقها رباني بشهادة القرآن الكريم ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ**﴾.[44] ومن هنا فالقرآن أعظم وحي «سنام الكتب السماوية ومِصْدَاقُهَا والعيار عليها»[45] وهو ليس معجزا للعرب وحدهم، وإنما للناس جميعا، «وذلك لأن الناس كل بلسانه عاجزون أن يعطوا نصا متشابها، كل في لسانه الخاص بحيث يبقى النص ثابتا، ويطابق محتواه الأرضيات المعرفية المتغيرة والمتطورة للناس مع تطور الزمن إلى أن تقوم الساعة».[46] الله الواحد وحده القادر على تأويله، أما الراسخون في العلم فيؤولونه حسب أرضياته المعرفية النسبية في كل زمن حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

والواقع أن المكتبة الترجمية للنص المقدس ما زالت في حاجة ماسة إلى الترجمات المقارنة لعدة أسباب: أولها أن الدراسة الترجمية المقارنة تكشف عن حقيقة الحوار بين ترجمة الأنا وترجمة الآخر للكتب المقدسة وثانيها أنها تموقع إنجازاتنا الترجمية في إطار الترجمة الإنسانية ذات الأبعاد العالمية فنعيد رؤيتها بشكل جديد من خلال هذا المنظور الواسع النقدي الترجمي المقارن، وهذا يؤدي بنا إلى تتبع المؤثرات الترجمية المختلفة في آلياتها الفاعلة، وفي تحولاتها

المحلية. حتى تتواءم مع المناخات المحلية التي تصدر عنها الأعمال الترجمية التي تستجيب لتلك المؤثرات.

وعلاوة على ذلك تقيم الدراسة الترجمية المقارنة علاقات تناظر وتوازي بين الرؤى واللحظات الحضارية المتماثلة. فتتكشف لنا هذه العلاقات عن الأبعاد الخفية علينا في كثير من الظواهر الترجمية المقدسة، وترهن وعينا بآلياتها. وبهذا نثري فهمنا للتجربة الترجمية من خلال الكشف عن تنوعاتها ومستوياتها وأساليبها المتطورة... وهذا كله يساعد على نقد الترجمة من خلال المقارنة ويطبقها في سياق علمي سليم، لا يكتفي برؤية الظاهرة الترجمية فقط في إطارها المحلي فحسب، ولا يحاول أن يخضعها لمقاييس خارجة عليها أو مستقاة من سياق ترجمي آخر. وكما يقيم توازنا حساسا بين السياق الخاص الذي يقدر خصوصية الظاهرة، وبين السياق العام الذي يكشف ما فيها من عناصر مشتركة. وكل هذا بعيدا عن اختلاق اللبس بين الأديان وعلى مستوى المفاهيم والتصورات. وفي السياق المقربي يلاحظ أن بعض المفكرين العرب اصطنعوا اللبس وافتعلوا سوء الفهم «ليقوم بالتجني على الإسلام باسم نزع القداسة عن تفاسير القرآن -الترجمات الداخلية- وعن الشخصيات الإسلامية مع العلم أن الأمر غير مطروح في الإسلام لا على صعيد العقيدة، ولا على أي صعيد آخر».(47)

إن الترجمة اليوم لا يمكن أن تختزل في مجرد كونها ظاهرة لغوية مجالها الوحيد هو النص بل هناك تعبير واضح لدى مختصيها الذين يرغبون في توسيع أفاق النظر إلى الترجمة والإحاطة بكافة تجلياتها وبواعثها ومؤثراتها لكسر احتكار اللغويات لها فهي قبل أن تكون فعلا لغويا فهي فعل ثقافي واجتماعي

متعدد المسارات ومن ثم وجب النظر إليها في سياقاتها التاريخية الاجتماعية والثقافية.

إن الثقافة بكل أبعادها المقدسة والتاريخية هي المجال الحيوي الذي يتم فيه إنتاج الترجمة وتلقيها، وهو ما يعني أن أية دراسة جادة لظاهرة الترجمة لا يمكن أن تتجاهل هذا المجال الحيوي الذي تعبر عنه نظرية النسق المتعدد La théorie du polysystème بوصف النص المقدس نسقا ديناميا معقدا.

يحق لنا في نهاية هذه المقاربة التأكيد على أن الترجمة المتعلقة بالنصوص المقدسة صعبة وعسيرة المراس، بل هي باب من أبواب الرأي والنظر والإدراك والفحص والاستدلال، تستغرق كل قدرات المترجم من أجل الفهم والتبليغ لا تباشر بعفوية بل بدربة طويلة النفس، ولا يقدم عليها المترجمون إلا إذا تأكدوا من طبيعة النص المقدس، الذي تثبته الحجج الدامغة، لكونه متعلق بأصول الدين، ينبغي رده إلى النبي المناط به، ثم إلى الخالق عز وجل.

وصفة القدسية الحقة الواضحة لابد لها من سند جلي، وفي هذا السياق قال عبد الله بن المبارك «الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء» وقال الشافعي: «الذي يطلب العلم بلا سند كحاطب ليل، يحمل حزمة حطب، وفيها أفعى وهو لا يدري».(48)

إن مترجم النص الديني أو المقدس، فضلا عن كونه متلفظا منغرسا في تاريخيته وموقعه الثقافي والاجتماعي، يواجه في عملية الترجمة "الثقافة – الهدف "وكذلك نسقيها اللغوي والمقدس. إنه مجبر على اختيار اللغة والخطاب اللذين سيكتب بهما ترجمته، والنوع الذي سيدرج فيه نصه وأسلوب الكتابة الذي سيصوغ فيه ترجمته.(49) ومن جهة أخرى عليه أن يحرص دائما على عدم

تعنيف لغة التلقي، تلقي المقدس بفرض بنيات أجنبية نابية عنها. وفي نفس الوقت من الواجب عليه احترام النص الأصلي وذلك بالتعبير عن وظائفه بكيفيات كافية ومناسبة قدر الإمكان دون إغفال إحداها.

خلاصة:

في خاتمة المقاربة نرى أن مشكلة ترجمة النص المقدس واسعة ومركبة لا كلمة نهائية فيها وأنها تحتاج إلى مزيد من الدراسات، نظرية وعملية متتابعة، وهي في حاجة إلى بناء نظري ضخم يعاد فيه التأمل من وقت لآخر في موضوع الترجمة. وننهي المقاربة بما ذكر "الزركشي" عن "سهل بن عبد الله" الذي كان يقول: «لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه، لأنه كلام الله، وكلامه صفته. وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه بله ترجمة كتابه. وإنما يفهم ويترجم كل بمقدار ما يفتح الله عليه. وكلام الله غير مخلوق، ولا تبلغ إلى نهاية فهمه فُهومٌ مُحدثة مخلوقة».[50] وبالتالي تعجز كل الترجمات مهما تعددت أن تبلغ كل معانيه الربانية المطلقة.

هوامش:

1- جون لانكشو أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، ترجمة عبد القادر قينيني، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 2008، ص7.

2- Georges MOUNIN, Linguistique et Traduction. Revue de Linguistique, n: 1-2, 1967, P.44.

3- ينظر: عبد السلام بنعبد العالي، في الترجمة De la traduction ترجمة كمال التومي، قدم له وراجع الترجمة عبد الفتاح كليطو، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 2006.

4- الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق محمد عبد السلام هارون، دار الجيل، 1955، الجزء الأول، ص ص 75-79.

5- Dans la Bible, ce ne sont pas seulement des idées qui sont sacrées et inspirées, mais les mots eux-mêmes.
Cité par C. ORRIEUX, in V. COSMAO et al, Afrique et Parole, (Paris, Présence africaine, 1969), P.32.

6- أمبرتو ايكو، اسم الوردة، ترجمة أحمد الصمعي، دار التركي للنشر، 1991، ص.110.

7- المرجع نفسه، ص64-107.

8- محمد ديداوي، علم الترجمة بين النظرية والتطبيق، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة-تونس 1992، ص.15.

9- صناعة المعنى وتأويل النص، أعمال ندوة قسم اللغة العربية من 24 إلى27 أيريل 1991،كلية الآداب المنوبة، امبرتو إيكو وحدود التأويل، أحمد الصمعي، منشورات كلية الآداب، تونس، 1992، ص465-474.

*﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾{البقرة/79}.

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ {البقرة/75}.

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ {البقرة/146}.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ {آل عمران/77}.

10- ينظر: فريدمان إليوت ريتشارد، من كتب التوراة، تر. عمرو زكريا، القاهرة، دار البيان للنشر، ط1، 2003، ص7-16.

11- م.ن، ص17-18.

*﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {78} مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللّهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ {79} وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ {80} وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّيْنَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا

مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ{81} ﴾.سورة آل عمران.

12- سورة النساء الآية .46

13- Mireille HADAS-LEBEL, La lettre d'Aristée, avait-on le droit de traduire une traduction sacrée? Professeur à l'université Paris 4 Sorbonne.

14- ينظر: فريدمان، م.س، ص16-.17

15- عبد السلام عبد الوهاب طويله، الكتب المقدسة في ميزان التوثيق، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، 2002، ص.41

16- م.ن، ص19-.20

17- منذر العياشي، ص.18

18- فريدمان إليوت ريتشارد، م.س، ص.18

19- فريدمان م.ن، ص.19

20- م.ن، ص.19

21- العدد .12:3

22-

23- La Bible. Nouvelle traduction, sous la Dir. de F. Boyer - J.-P. Prévost - M. Sevin, Bayard / Médias Paul, Paris / Montréal 2001.

Voir: J.-C. MARGOT, «le Rôle des mots d'emprunts dans la traduction biblique», Meta, 35/1, mars 1990, PP.188-194.

24- Faut-il ajouter que le Nouveau Testament, au moment de sa rédaction en grec, était déjà une traduction, du moins en ce qui concerne les paroles de Jésus contenues dans les Evangiles. La langue de Jésus était l'araméen.

25- Voir par exemple l'ouvrage de J.-M. BABUT, Lire la Bible en traduction, Coll. Lire la Bible n° 113, Le Cerf, Paris, 1997.

26- Le terme «vernaculaire» vient de l'adjectif latin vernaculus, «indigène, national» (le mot souche, verna, «esclave né dans la maison du maître», est d'ailleurs emprunté à l'étrusque).
27- Carlo BUZZETTI, La Biblia e le sue trasformazioni (Brescia, Queriniana, 1984), P.18.
28- Cité par J.-P. DUFOUR, Tradition et innovation, Recherches sur la traduction de la Bible, Version autorisée de 1611 (Université de Saint-Étienne, 1983), P.187.
29- Cité par C. ORRIEUX, in V. COSMA, P.32.
30- Jean-Claude MARGOT, Langues sacrées et méthodes de traduction,TTR, terminologie, rédaction, vol.3, n° 2, 1990, P. 15-31.
31- L.-H. de LAHARPE, cité par J.-C. MARGOT, Traduire sans trahir, (Lausanne, l'Age d'Homme, 1979, 1990, 2e éd.), P.1.
32- Pierre GANDIL, La Bible: de la Vetus Latine à la Néo Vulgate, P.5.

33- مجلة فصول العدد 74، خريف 2008، ص .163

34- عبد الوهاب عبد السلام طويله، الكتب المقدسة في ميزان التوثيق، الكتب المقدسة في ميزان التوثيق، القرآن التوراة الإنجيل، القاهرة، دار السلام، ط2، 2002، ص.5

35- سورة النساء الآية .82

36- إدمون كاري، الترجمة في العالم الحديث، ترجمة عبد النبي ذاكر، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2004، ص.92

37- Paul RICŒUR, Herméneutique «Philosophie et herméneutique biblique» du texte à l'action, Paris, Seuil, 1986, P.125.

38- جورج مونان، الترجمة والميتافيزيقا، ترجمة عبد النبي ذاكر، العلم الثقافي، ع782.21، يوليو،1990.

39- إدمون كاري، م.س، ص.92

40- حسب الحاجة نستطيع العودة إلى المقولات السابقة من أجل نظرية في الترجمة والتي تحتوي في آن واحد الأعراف النصية والشرح والترجمة.

41- جاك بارك، إعادة قراءة القرآن، م.س، ص.76

42- موريس بيكاي، الكتب المقدسة، ص.45

43- م.ن، ص.45

44- سورة العنكبوت، الآية .48

45- الكشاف، الجزء الرابع، ص.43

46- محمد شحرور، القرآن والكتاب، دار الأهالي للطباعة والنشر، دمشق، ط2، 1990م.

47- جاك بارك، م.س، ص.76

48- جامع الأصول 109، صحيح مسلم 22/1، نص القدير 432./1

49- ينظر: عبد الكبير الشرقاوي، شعرية الترجمة الملحمة اليونانية في الأدب العربي، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط1، ن2007، ص.46

50- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، بيروت، دار المعرفة، د.ت، ج1، ص9.